مقال مراجعة موضوع

فكرة الدولة القومية لدى العرب المعاصرين ،تهافت المفهوم وضياع المعنى

أ.م. مؤيد جبار حسن
مركز الدراسات الاستراتيجية- جامعة كربلاء

الكلمات المفتاحية: الدولة القومية. المفكرين العرب. المفهوم والمعنى

الملخص:

مثلت الدولة القومية قمة التطور السياسي للمجتمعات البشرية ، على اختلاف الوانهم ولغاتهم وطباعهم وصفاتهم، باعتبارها الوصفة الانجع للتجمع السياسي. في حين مثلت تلك الفكرة لدى العرب اهتمامات أخرى أوضح عنها العديد من المفكرين وأساتذة الجامعة ، والذين قام الباحث بتقصي أفكارهم وتسطيرها في هذا المراجعة السياسية التاريخية.

ان المجتمعات البدائية توسعت لتتشكل منها هياكل سلطوية اقتربت رويدا رويدا من الهيكل المتعارف عليه للدولة قديما، ثم توالي السنين وتراكم التجارب البشرية ادى الى نضوج الافكار والتصورات السياسية حول الدولة لتحمل صفة قومية تعنى بنوع بشري دون الاخر وفيه مجتمع متمايز.

فكرة الدولة تلك نظر لها الكثير من العرب المعاصرين من زوايا مختلفة، كل حسب مرجعيته الفكرية وما يعتنقه من مبادئ ، لذا جاءت الخلاصات الفكرية حول الدولة متنوعة عن العرب .

ولم يكن للدولة بمعناها المؤسسي وجود طيلة العصور الوسطى الاقطاعية لاندماج تلك الدولة في شخص الملك، حتى أصبحت الدولة هي الملك ، والملك هو الدولة ، ولكن الاخيرة واعتبارا من عصر النهضة ، تطورت باتجاه اخر وفر لها الاستقلال عن الاعتبارات الشخصية الخاصة بالملك، مثلما ضمن لها الاستقلال وهذه المرة بمساعدة الملك عن الكنيسة.

وعند النظر الى ما عَرَفَ به العرب المعاصرين فكرة الدولة بصورة عامة والدولة القومية بصورة خاصة . ومن ابرز من اطلعت على مؤلفاتهم في هذا الخصوص:

الاستاذ احمد محمد حسن القضاة الذي اعتبر -الدولة القومية- : " وحدة اجتماعية- سياسية اعظم من القبيلة او دولة المدينة(The City State) وأصغر من الدولة الامبراطورية ، ولكن دون الافتراض بوجود أي تطور تاريخي لتشكيل اي منهما، فعندما يتطور المجتمع متجاوزا مرحلة (القبيلة) ، ربما يتبلور في شكل الدولة المدينة، وربما ينتقل مباشرة من هذا النمط ليأخذ شكل الدولة الامبراطورية ، من غير ان يمر بمرحلة (الدولة القومية) ، وهذا هو مسار التطور المعروف في العالم (الكلاسيكي) ". وعند تطبيق هذا التعريف على الدولة القومية عند العرب، نلاحظ ان بدايات تاريخهم كانوا قبائل ثم وحدهم الاسلام في ثلاث دول متتالية (الاموية، العباسية ، العثمانية)، بعدها ظهرت ، بعد استقلالها عن الاستعمار الاوربي دولا قومية تختص بمجموعات بشرية وعرقية متمايزة عن غيرها، يجمعها كم كبير من المشتركات كاللهجة والجغرافيا والعادات والتقاليد والدين .

واشار د.سعدي كريم سلمان الى ان " الدولة محوراً للتحليل السياسي،بل ويراها البعض جوهر دراسة علم السياسة، ... ، لكن رغم ذلك لا يمكن ان تعد الدولة هدفاً في حد ذاتها، بل هي وسيلة لانجاز هدف يسعى إليه أعضاؤها، وبوصفها تجمعا بشريا هدف الدولة هنا، ليس أكثر أهمية أو تقدماً بسبب كونه عاماً، بل إنه القيمة التي تضفى على نشاطها بمقارنتها بأي تجمع آخر، كالحزب او النقابة ، لذا فإن أي تجمع بما في ذلك (الدولة) يجب تقييمه على ضوء أهدافه بوصفه أداة لتحقيقها ، فالدولة على امتداد تاريخها وفي مختلف نماذجها تسعى لتحقيق وظائف معينة، وهذه الوظائف بغض النظر عن مضامينها تحددها عقائد وأيديولوجيات سياسية لذلك نجد تباين واختلاف هذه الوظائف من دولة إلى أخرى تبعاً لاختلاف الأيديولوجيات والعقائد ، "واعاب على البعض أسقاط الرؤية الاوربية لمفهوم الدولة القومية على مفهوم الدولة الاسلامية، وفي ذلك أشارة من د.سعدي الى اعتبار ان قومية الدولة فكرة اوربية المنشأ ، كما ان الدولة لديه مجرد وسيلة لتحقيق هدف ، واذ ما اقترنت بالقومية ستكون الاخيرة هدفها الاول والاخير.

ويمضي الاستاذ فتحي المسكيني الى القول ان "مصطلح ((الدولة القومية)) أو (الدولة ـ الأُمة) (nation-) state مركب من مفهومين لهما تاريخ نظري مختلف؛ ذلك أنّ السؤال »ما الدولة؟« الذي يبدو مبحثاً (قانونياً) مناسباً، كي يُطرح في القرن السابع عشر ـــ مع توماس هوبس مثلا ـــ ليس له العمر نفسه لسؤال: (ما الأُمة؟) الذي يبدو هاجساً (هوياً). متاخر تاريخياً، فهو ينتمي إلى أدبيات القرن التاسع عشر" وعندما يريد ان يؤرخ للسياق الذي تكوّنت فيه ظاهرة الدولة الحديثة نفسها قبل أن تصبح قومية ، وهو" بالتحديد سياق الخروج من الحروب الأهلية في القرن السابع عشر (بعد معاهدة وستفاليا سنة 1648) ونجاح الأوروبيين في تشكيل (نظام عالمي) مؤسس على (سيادة) الدولة وحدها، مستقلة بشكل (مطلق) عن أي سلطة من نوع آخر، وخاصة من طبيعة لاهوتية. وكلّ ما نسميه (دولة حديثة) أو (دولة سيادية) هو لا يعدو أن يكون دولة(سلام ستفاليا)، والسلام في معنى محدد جدًا،ـ هو الخروج من الحرب الدينية بعامة". فالدولة أسبق من القومية ، وكل دول العالم تديل بالفضل لسلام ويستفاليا في اوربا.

فيما أشار الدكتور ماجد حميد خضير(استاذ العلوم السياسية –جامعة النهرين) الى " ان الدولة القومية تعد الاساس للعلاقات والسياسة الدولية وكذلك فإن استمرارية وجود النظام الدولي الذي تعد الدولة القومية الشخص الرئيس في ادارة كافة التفاعلات التي تحدث داخله" وتوقع ان " نموذج الدولة القومية الذي كان سائدا خلال القرن العشرين وفي القرن الحادي والعشرين بصدد الان نهاية صلاحيته ان لم يكن تلاشيه نهائيا ، وذلك بفعل التغير الجوهري والعميق لمفهوم القوة بابعاده كافة، فالاشخاص الدوليون من غير الدول باتوا يحدثون تأثيرات عميقة تفوق قابليات وحجوم الكثير من الدول الرئيسة لدرجة تدعو لتغيير مصطلح السياسة الدولية نحو مصطلح السياسة العالمية ". وهنا يبدوطرح نهاية الدولة القومية مبالغا فيه ، رغم عواصف العولمة العاتية وظهور فاعلين دوليين جدد على الساحة، الا ان الدولة استمرت في الوجود باعتبارها الوصفة الانجع للتجمع البشري المعاصر.

ويعقد الكاتب محمود حيدر مقارنة بين الدولة القومية والدولة الوطنية، اذ يرى ان ثمة تشابه بين المفهومين، فتجارب (الحداثة) في العالم الغربي ابتداء من القرن (13) الميلادي ـــ تظهر لنا اختلافا بين المفهومين، لجهة شكل وطبيعة الأنساق

التي اتّخذها كلٌ منهما، فالدولة القومية كوحدة (سياسية إجتماعية) عادةً تكون أكبر من (القبيلة)أو (الدولة المدينة) ،The City State وهي من جهة اخرى أصغر من الدولة الإمبراطورية. ولكن يجب أن لا نذهب الى افتراض وجود أي تطور تاريخي قد دخل ضمنا في هذه المقارنة، ذلك أننا إذا ما قمنا بتحليل التتابع التاريخي لهذه الظواهر: القبيلة ، الدولة القومية، الإمبراطورية ـــــ ويبدو أن (المصطلح الثاني) غالبًا ما يكون مهملا ، فلما تطور المجتمع وتجاوز (مرحلة القبيلة) ربما تبلور في شكل (الدولة المدينة)، وكثيرا ما انتقل هذا النمط مباشرةً ليأخذ شكل الدولة الإمبراطورية، دون ان يمر بمرحلة الدولة (الامة)او (القومية).

وفي موضوعة القومية، يعرفها الشيخ عبد الله عزام بـ : " مبدأ اجتماعي - سياسي يفضل معه صاحبه كل ما يتعلق بأمته على سواها مما يتعلق بغيرها، او هي : عقيدة تضع وعيا جديدا يمجد فيه الانسان جماعة محدودة من الناس يضمها إطار جغرافي ثابت، ويجمعها تراث مشترك وتنتمي الى أصول عرقية واحدة " ويرى الشيخ ان الدعوة للقومية العربية ما هي الا محاولة من الغرب لاستبعاد الاسلام كرابطة وحيدة واحلال رابطة جديدة مكانها ، بعد فشل الغرب في الحروب الصليبية ، فاراد ان يستعمل اسلوب الفكر واللسان بدل السنان ، وذلك ليسهل للغرب تثبيت اقدامه في بلادنا ، خاصة بعد حملة نابليون على مصر". وهذا الفكر ليس غريبا عن المفكرين الاسلاميين الذين انحازوا الى الدولة الاسلامية دون غيرها.

فيما يرى د. محمد بن فهد المطيري ان ((القومية)) :" فكرة قديمة قدم الاجتماع البشري، فيما كانت تسمى قديماً "العصبية"، فالعصبية كانت تجمع أفراد القبيلة الواحدة في تكتل واحد، وكان العرب قبل الإسلام تسود فيهم - وبصورة جامحة- العصبية القبلية والدموية" ويضيف " إن نشأة القومية العربية في بلاد العرب والمسلمين كان هدما مرسوما ومخططا دقيقا من قبل أعداء الإسلام وهم اليهود والنصارى ، الذين لعبوا دورا بارزا وخطيرا في تمزيق الأمة الإسلامية وجعلها دويلات متناحرات متقاتلات بعضها مع بعض لها حدود جغرافية ولها تشريعات وقوانين ودساتير على أساس القومية العربية والسياسية بعيدا عن شرع الله ".

وهنا يظهر ان المفكرين العرب الاسلاميين من ابرز المعارضين لفكرة الدولة القومية، فيوسف القرضاوي مثلا، عدها فكرة جاهلية رجعية تتعارض مع الثوابت الدينية، فهي تقوم على إحياء العصبية وانها امتداد للشعور القبلي ، فضلا عن أن

دعاة القومية، على وفق رأي القرضاوي، يعتبرونها عقيدة ويوجبون الاعتقاد بها، والولاء لها، والدعوة إليها، والتعصب ضد من لا يقبلها ،وانهم يعتبرون الولاء لها مقدم على أي ولاء أخر حتى ولو كان لله ولرسوله، فهي رابطة أسمى من الرابطة الدينية نظريا وعمليا ، وفي ذلك مخالفة صريحة لنص القرآن الكريم (إنما المؤمنون إخوة) ولقوله (صلى الله عليه واله) المسلم اخو المسلم.

ويرى الشيخ عبد الكريم ال نجف، إن القومية، بما انها تجعل من بعض العناصر أسسا للتمايز الذاتي، فانها ستنتهي إلى الإقلال من شأن الغير بشكل تلقائي وتتحول فيما بعد إلى شعور استعلائي عنصري ، حتى إن العنصرية أصبحت سمة ملازمة للقومية ولا يمكن التفكيك بينهما.

وفي رأي مخالف للسابقين ، كتب المجتمعين الشباب في المؤتمر الاول للطلاب العرب في اوربا عام 1938 ، ان " القومية العربية هي الشعور بلزوم التحرر والاتحاد، الموجود بين سكان البلاد العربية ، القائم على وحدة الوطن واللغة والثقافة والتاريخ والاحساس بالمصلحة المشتركة" ويسترسل " الفكرة القومية العربية هي فكرة وطنية تحرم حرية العصبيات العنصرية والاقليمية والطائفية، وتحترم حرية العبادة، وتحترم الحريات الفردية كحرية الرأي والعمل والاجتماع، ما لم تتعارض مع المصلحة العامة، فالفكرة القومية العربية لا يمكن ان تتناقض مع مصالح الاقليات العنصرية او الدينية الحقيقية، بل ترمي الى معاملة جميع المواطنين المخلصين على أساس المساواة في الحقوق والواجبات". وهذا الشعور القومي تصاعد منذ عهد الاستقلال للدول العربية ، وما زال يمثل الهوية الداخلية لكل شعب عربي، ويميزه عن غيره من الشعوب.

وفي مقابل هذين الاتجاهين ، الداعي والرافض للقومية، هناك اتجاه آخر يقف موقفا معتدلا من القومية دون أن يعدها أساس وحدة الأمة الإسلامية، إذ يذهب الاستاذ محمد حسن الأمين إلى القول بان الانتماء القومي لا يمثل التصور المناقض للانتماء الإسلامي، بل إن كل منهما يمثل بعدا من أبعاد هوية المنطقة وشعوبها، وهوية حضارتها وتاريخها ومستقبلها. أي ان هناك ارضا مشتركة يمكن ان يحيا عليها القومي مع الاسلامي .

ومن مشتقات القومية، الارادة القومية التي يصنفها د. احمد مشعان نجم من العناصر الرئيسة في مقومات قوة الدولة ومكانتها، ويعرفها ب: " مجموعة العوامل التي تشكل في مجموعها إرادة الدولة ، والاساس الذي تستند عليه عند اتخاذها للقرار القومي، وتتضمن :القيادة القومية وتشمل درجة المساندة الشعبية ومدى استقرار وضع القائد السياسي، مستوى التكامل القومي ويشمل التكامل الاقليمي والتكامل الثقافي من دين ولغة واثنية ".

وتذهب الدكتورة بتول حسين، الى ان الهوية القومية لا تمثل بعدا واحدا من أبعاد هوية الأمة ، وإنما هناك هويات متعددة داخل الأمة الواحدة يعبر عنها بالانتماء ، فيمكن أن يكون الشخص منتميا إلى القومية أو المذهب أو الطائفة ، ولكن الانتماء إلى العقيدة يتحول إلى إطار فكري، خلافا للانتماءات الأخرى التي تظل في إطار التصور الإسلامي (انتماء شعور) مقيد بالضوابط والثوابت الإسلامية.

وفي مستقبل القومية، ترى الكاتبة سهام الدريسي إن (القومية العربية) تمر حاليا في انعطافة غير مسبوقة، ليس بوصفها مشروعاً سياسياً، وإنما لاحيائها للترابط العاطفي، والذي تكونت ملامحه الأولى مع قيام ثورات الربيع العربي على المنابر الإعلامية ومواقع التواصل الاجتماعي، حيث اصبحت مشاعر التعاطف والترابط أكثر ديناميكية وسيولة ،وأحياناً تندمج داخل شعارات القوى الاسلامية، كما بانت في الحماسة الشعبية للنيل من الأنظمة الاستبدادية (والتي تظن شعوبها أنها تتآمر مع القوى الغربية وتخون المصلحة الوطنية والقومية) في تونس ومصر وسوريا واليمن. خلاصة الفكرة هنا ان القومية العربية بصفتها موروثاً سياسياً وثقافياً ليس بإمكانه تحريك الشارع العربي.

الخاتمة:

ان موضوع الدولة القومية نال أهتمام منقطع النظير من العرب المعاصرين، بين مفسرا لها او ناقد او مشجع لها، كثرة التعريفات وتنوعها أضر بالمعنى الحقيقي لها ، فهناك من يراها تطور تاريخي للقبائل العربية، ورأي اخر يعدها تركة الاستعمار الغربي، الذي اراد ان يقسم العرب بين دول قومية مختلفة، والرأي الثالث نظر لها كنعمة يجب على الشعوب العربية التمسك بها ، لانها تمثل الحل الوحيد لطبيعة المجتمعات المعاصرة .

ان فكرة الدولة القومية في العالم العربي ، كما يرى الباحث، رغم سلبياتها وايجابياتها، الا انها الواقع الذي فرضه المحتل الاوربي وارتضاه العربي ، واصبح نموذجا الاكثر صلاحية واستمرارية ، والدليل ان الجماعات الارهابية الدولية (داعش ، القاعدة) فشلتا في صنع دولة (لا قومية) على انقاض الدول التي تواجدوا فيها، وحتى تجربة طالبان ، فإن تلك الحركة جاءت للحياة على هيكل الدولة الافغانية، ولم تأت بشيء جديد ، وإنما كانت تبديل في السلطة الحاكمة للبلاد وليس في شكل الدولة القومية.

الهوامش والمراجع :

1. عبد الرضا حسين الطعان واخرون،الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر ، ج1، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ،جامعة بغداد/كلية العلوم السياسية، 2008.
2. احمد محمد حسين القضاة، مكانة الدولة القومية في النظام العالمي في ضوء العولمة، رسالة ماجستير، قسم العلوم السياسية-كلية الاداب-جامعة اليرموك، الاردن ، 2009.
3. سعدي كريم سلمان ، وظائف الدولة :دراسة في الفكر السياسي العربي الاسلامي ، مجلة العلوم السياسية،العدد 35 ،2007.
4. فتحي المسكيني، الحرب، والدولة القومية، وتكون نظام العالم الحديث،مجلة التفاهم،العدد69،مجلد18،عمان،2020.
5. ماجد حميد خضير، الدولة القومية دراسة في نظرياتها الكلاسيكية والمعاصرة، ،مجلة دراسات دولية-جامعة بغداد،العدد82، 2020.
6. محمود حيدر، الدولة فلسفتها وتاريخها من الاغريق الى ما بعد الحداثة ، سلسلة مصطلحات معاصرة، العتبة العباسية المقدسة-المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، ط1، 2018.
7. عبد الله عزام ، القومية العربية ، ص4.رابط موقع الكتاب :
https://www.cia.gov/library/abbottabad-compound/B2/B2708252BB9A5054C59B985AB1C70644_qawmiyah-azzam.pdf
8. محمد بن فهد المطيري، أثر القومية على العقيدة الاسلامية ، مجلة دراسات عربية ، كلية دار العلوم، جامعة المنيا ، العدد6، مجلد41 ،2020. يوسف القرضاوي ، من اجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا ،الرابط: www. Qardawy.com.
9. عبد الكريم ال نجف ، لدولة الإسلامية دولة عالمية ، الأمانة العامة لمجلس خبراء القيادة، إيران.
10. المؤتمر الاول للطلاب العرب في اوربا –بروكسل1938، القومية العربية حقيقتها اهدافها وسائلها ، دار الاحد للطباعة والنشر ، بيروت.

11. محمد حسن الأمين ، الاجتماع العربي الإسلامي : مراجعات في التعددية والنهضة والتنوير ، دار الهادي ، بيروت، 2003.
12. أحمد مشعان نجم، مكانة الدولة وعلاقتها بمفهوم القوة في العلاقات الدولية، مجلة العلوم السياسية-جامعة بغداد، العدد53، 2017.
13. بتول حسين ، مفهوم الدولة واركانها في الفكر الاسلامي المعاصر، مجلة العلوم السياسية ، العدد43.
14. سهام الدريسي ، القومية في المنطقة العربية الواقع والمستقبل، مركز الفكر الاستراتيجي للدراسات، 2017.

Review Article

The idea of the nation-state among contemporary Arabs: the inconsistency of the concept and the loss of meaning

Assist Prof. Moayad Jabbar Hassan

Center for Strategic Studies- University of Karbala

muayad.j@uokerbala.edu.iq

Keywords: The nation state. Arab thinkers. concept and meanin

Summary:

The nation-state represented the pinnacle of political development for human societies, regardless of their colours, languages, character and characteristics, as it was considered the most effective recipe for political assembly.

While this idea among the Arabs represented other interests that were explained by many thinkers and university professors, whose ideas the researcher investigated and underlined in this historical political review during this topic review article.

At the end of the article, a narration of the researcher's findings and his own opinion, along with approved references.